Abhat Journal, Volume. 18, Issue. 2, September 2026

Abhat Journal, Faculty of Arts, Sirte University مجلة أبحاث بكلية الآداب جامعة سرت
Source Homepage: http://journal.su.edu.ly/index.php/ABHAT/index
https://doi.org/10.37375/aj.v18i2.4322

الغنى القلبي وأثر العبادة في تحقيقه: دراسة عقدية حديثية في ضوء الحديث القدسي «تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى»

أ. شداد بن خالد مُحَمَّد عطيه
معلم، باحث دكتوراه بقسم العقيدة/ كلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى، مكة المكرمة– المملكة العربية السعودية
Shaddad.atiyah@gmail.com

الملخص:

يتناول هذا البحث **الغنى القلبي وأثر العبادة في تحقيقه** من خلال دراسة عقدية حديثية للحديث القدسي: «يا ابن آدم تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسُدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلًا ولم أسد فقرك». ويهدف إلى بيان حقيقة العبادة وأثرها في صلاح القلب وطمأنينته، وتوضيح مفهوم الغنى القلبي والفرق بينه وبين الغنى المادي، وبيان أثر التعلق بالدنيا في فقر القلب. واعتمد البحث على المناهج الاستقرائي والتحليلي والاستنباطي. وخلص إلى أن الغنى الحقيقي هو غنى القلب بالله تعالى، وما يثمره الإيمان والعبادة من قناعة ورضا وطمأنينة، وأن التفرغ للعبادة لا يعني ترك أسباب الحياة، وإنما عدم استيلاء الدنيا على القلب وصرفه عن غايته. كما أظهر البحث أن العبادة والذكر والتوحيد من أعظم أسباب صلاح القلب وانشراح الصدر، وأن الإفراط في التعلق بالدنيا من أسباب فقر القلب وكثرة الهموم.

الكلمات المفتاحية:

الغنى القلبي، العبادة، صلاح القلب، فقر القلب، التعلق بالله، التعلق بالدنيا.

معلومات النشر:
تاريخ الاستلام: 2026/07/30
تاريخ القبـــول: 2026/08/27
تاريخ النشـــر: 2026/09/01

Spiritual Emptiness and Its Role in Suicidal Tendencies: A Doctrinal Study

Shaddad bin Khalid Mohammed Atiyah
Teacher, Department of Islamic Creed, College of Da'wah and Usul al-Din,
Umm Al-Qura University, Makkah, Saudi Arabia
Shaddad.atiyah@gmail.com

Abstract:

This study examines **spiritual richness of the heart and the role of worship in achieving it** through a theological and hadith-based study of the Qudsi Hadith: "O son of Adam, devote yourself to My worship; I will fill your heart with richness and relieve you of your poverty." The study aims to clarify the nature of worship, its impact on the soundness and tranquility of the heart, the concept of spiritual richness and its distinction from material wealth, and the effect of attachment to worldly life on spiritual poverty. It adopts inductive, analytical, and deductive approaches. The study concludes that true richness is the richness of the heart through faith in Allah, which produces contentment, satisfaction, and tranquility. It also shows that devotion to worship does not mean abandoning worldly responsibilities, but rather preventing worldly concerns from dominating the heart. Worship, remembrance of Allah, and monotheism are among the greatest causes of spiritual well-being, while excessive attachment to worldly life leads to spiritual poverty and anxiety.

Keywords:

Spiritual Richness, Worship, Soundness of the Heart, Spiritual Poverty, Attachment to Allah, Attachment to Worldly Life.

Information:
Received: 30/07/2026
Accepted: 27/08/2026
Published: 01/09/2026

©Abhat Journal, Sirte University 2026

المقدمة:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ خاتمِ النبيين وإمام المرسلين، المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبهِ أجمعين.

أما بعد:

فإن من أعظم مقاصد الشريعة تحقيق العبودية لله تعالى، وتوجيه القلوب إلى التعلق به وحده، إذ في ذلك سعادتها وطمأنينتها وغناها الحقيقي، وقد جاءت النصوص الشرعية مؤكدةً أن الغنى ليس مقصورًا على كثرة المال ومتاع الدنيا، وإنما الغنى الحق هو غنى القلب بالله تعالى، والقناعة بما عنده، والإقبال على عبادته.

ومن الأحاديث الجامعة في هذا الباب الحديث القدسي الذي يقول فيه الله تعالى: «**يا ابن آدم تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلًا ولم أسد فقرك**»، حيث اشتمل على معانٍ عظيمة تتعلق بحقيقة العبادة، وأثرها في تحقيق غنى القلب، وبيان ما يترتب على الانشغال عن الله تعالى من فقرٍ واضطرابٍ وعدم اكتفاء. حيث تزداد أهمية هذا الموضوع في ظل انشغال كثير من الناس بالماديات وتعدد أسباب التعلق بالدنيا، مما يجعل بيان مفهوم الغنى القلبي من القضايا المهمة التي تعالجها النصوص الشرعية، وتبرز أثر الإيمان والعبادة في تحقيق السكينة والرضا.

ويتناول هذا البحث دراسة مفهوم الغنى القلبي وأثر العبادة في تحقيقه من خلال هذا الحديث القدسي؛ وذلك ببيان المعاني العقدية والإيمانية التي يتضمنها، وتوضيح أثر التعلق بالله تعالى والعبادة في صلاح القلب وطمأنينته، وبيان الفرق بين الغنى الحقيقي والغنى المادي في ضوء النصوص الشرعية.

وقد جاء هذا البحث الموسوم بـــ: «**الغنى القلبي وأثر العبادة في تحقيقه: دراسة عقدية حديثية في ضوء الحديث القدسي: تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى**»؛ لبيان الدلالات العقدية التي تضمنها الحديث، وإبراز أثر العبادة في صلاح القلب وتحقيق الغنى الحقيقي الذي ينشده الإنسان في حياته. والله أسأل أن يوفقني للصواب، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم.

أهمية الموضوع:

1. بيان مكانة العبادة في تحقيق صلاح القلب وطمأنينته.
2. إبراز مفهوم الغنى الحقيقي في التصور الإسلامي، وأنه غنى القلب لا كثرة المال.
3. توضيح أثر التعلق بالله تعالى في تحقيق السكينة والاستقرار النفسي.
4. الكشف عن عناية السنة النبوية بإصلاح القلب ومعالجة التعلق المفرط بالدنيا.
5. الإسهام في دراسة حديث قدسي يجمع بين المعاني العقدية والإيمانية.

أسباب اختيار الموضوع:

1- أهمية الحديث القدسي محل الدراسة وما اشتمل عليه من معانٍ عظيمة حول العبادة وغنى القلب.
2- الحاجة إلى بيان أسباب الطمأنينة والسعادة في ضوء النصوص الشرعية.
3- الرغبة في إبراز الدلالات العقدية المستفادة من الأحاديث النبوية.
4- قلة تناول الحديث بالدراسة المستقلة من جهة أثر العبادة في تحقيق الغنى القلبي.
5- مناسبة الموضوع للجمع بين الجانب الحديثي والجانب العقدي.

أهداف البحث:

1- تخريج الحديث القدسي محل الدراسة وبيان درجته وشرح معانيه الإجمالية.
2- بيان مفهوم العبودية لله تعالى وأثرها في صلاح القلب.
3- توضيح مفهوم الغنى القلبي في ضوء النصوص الشرعية.
4- استخراج الدلالات العقدية والإيمانية التي يتضمنها الحديث.
5- بيان أثر التعلق بالله تعالى في علاج فقر القلب والانشغال بالدنيا.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي: وذلك بجمع النصوص الشرعية المتعلقة بالعبادة وغنى القلب والتعلق بالله تعالى.

المنهج التحليلي: من خلال تحليل ألفاظ الحديث القدسي وبيان معانيه ودلالاته.

المنهج الاستنباطي: لاستخراج الفوائد العقدية والإيمانية المستفادة من الحديث وربطها بأصول العقيدة الإسلامية.

خطة البحث:

التمهيد، وفيه مطالب:

المطلب الأول: دراسة الحديث القدسي

المطلب الثاني: تخريج الحديث وبيان درجته

المطلب الثالث: شرح ألفاظ الحديث ومعناه الإجمالي

المبحث الأول: العبادة وأثرها في صلاح القلب

المطلب الأول: معنى العبادة وحقيقتها في الإسلام

المطلب الثاني: أثر العبادة في صلاح القلب وتحقيق السكينة

المبحث الثاني: غنى القلب وفقره في ضوء الحديث

المطلب الأول: الفرق بين الغنى المادي وغنى النفس

المطلب الثاني: أثر الانشغال بالدنيا في فقر القلب

المطلب الثالث: علاج فقر القلب بالعبادة والذكر

الخاتمة، وفيها: أهم النتائج

فهرس المصادر والمراجع

وختامًا: أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يوفقنا للقيام بعبوديته على الوجه الذي يرضيه، وأن يغفر ما فيه من زللٍ أو نقصٍ أو خلل، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد:

المطلب الأول: دراسة الحديث القدسي

قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «**يَا ابْنَ آدَمَ: تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ**».

فقد ورد هذا الحديث القدسي من حديث أبو هريرة ﷺ، وهو أشهر طرقه، كما ورد بمعناه من حديث معقل بن يسار ﷺ مع اختلافٍ يسير في بعض ألفاظه، مع اتفاقها على المعنى العام للحديث.

وقد روي الحديث في عددٍ من دواوين السنة، منها: **جامع الترمذي، وسنن ابن ماجه، ومسند أحمد، وصحيح ابن حبان، والمستدرك على الصحيحين،** كما أخرجه غيرهم من أصحاب المصنفات الحديثية بألفاظ متقاربة.

وتدور روايات الحديث حـول أصلٍ واحد، وهو أن التفرغ لعبادة الله تعالى سببٌ لغنى القلب، وسدِّ الفقر، وكفاية العبد همومه، وأن الانشغال عن عبادة الله تعالى يورث كثرة الشغل، واستمرار الفقر، وإن اختلفت بعض ألفاظ الروايات؛ فمنها: «**أملأ صدرك غنى**»، ومنها: «**أملأ قلبك غنى**»، ومنها: «**أملأ يديك رزقًا**»، وكلها متفقة في تقرير هذا المعنى العظيم.

المطلب الثاني: تخريج الحديث وبيان درجته

أخرجه **أبو عيسى الترمذي في جامعه،** برقم: (2634)، من حديث أبو هريرة ﷺ، وقال: حديث حسن غريب.

وأخرجه **مُحَمَّد بن ماجه في سننه،** كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، برقم: (4107)، من حديث أبو هريرة ﷺ.

وأخرجه **أحمد بن حنبل في مسنده،** مسند أبي هريرة، برقم: (8681)، من حديث أبو هريرة ﷺ.

وأخرجه **مُحَمَّد بن حبان البستي في صحيحه،** في ذكر الإخبار عما يجب على المرء من التفرغ لعبادة المولى جل وعلا في أسبابه، برقم: (4761)، من حديث أبو هريرة ﷺ.

وأخرجه **ابن أبي شيبة في مصنفه،** في كلام أبي هريرة ﷺ، برقم: (34699)، من طريق أبي هريرة ﷺ.

وأخرجه **أبو بكر البيهقي في شعب الإيمان،** في الزهد وقصر الأمل، برقم: (10339)، من طريق أبو هريرة ﷺ. الكتاب: شعب الإيمان

وأخرجه **الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين،** برقم: (3657) في تَفْسِيرُ سُورَةِ حم عسق بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من حديث أبو هريرة، وبرقم: (7926) في كتاب الرقائق، من طريق معقل بن يسار رضي الله عنهما، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، **ووافقه مُحَمَّد ناصر الدين الألباني** في **صحيح الترغيب والترهيب،** في كتاب التوبة والزهد، في الترغيب في الفراغ للعبادة والإقبال على الله تعالى، والترهيب من الاهتمام بالدنيا والانهماك عليها، برقم: (3165)، (3166)، حيث حكم عليه بالصحة بمجموع طرقه.

المطلب الثالث: شرح ألفاظ الحديث ومعناه الإجمالي

أولاً: شرح ألفاظ الحديث:

قوله: (**يَا ابْنَ آدَمْ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي**)، أَيْ: (كُنْ فَارِغًا عَنْ كُلُّ شَيْءٍ لِأَجَلِ الْعِبَادَةِ وَاصْرِفْ وَقْتَكَ كُلَّهُ فِيهَا) (السندي، د.ت، ج. 2، ص. 525).

وقال: (تفرغ من مهامك لعبادتي حتى أقضي مهامك، ومن كان الله تعالى قاضياً لمهامه يستغنى به عن خلقه؛ لأنه الغني على الإطلاق،

وهو المعنى بقوله: «**أملأ صدرك غنىً**» (الطيبي، 1417هـ، ج. 10، ص. 3282).

والمعنى: أخلِ قلبك ووقتك من شواغل الدنيا، واجعل همّك الأكبر عبادة الله تعالى وطاعته، والتفرغ للعبادة لا يعني تعطيل مصالح العبد الدنيوية، ولا ترك أسباب المعاش، وإنما المراد ألا تستولي مشاغل الدنيا على قلبه فتشغله عن حق الله تعالى، وأن يجعل للعبادة حظها من وقته وهمّه، مع قيامه بما أوجب الله عليه من حقوق نفسه وأهله والخلق.

قوله: (**أملأ صدرك غنىً**): أي: (أَحْسِنْ قَلْبَكَ عُلُومًا وَمَعَارِفَ تُورِثُ الْغِنَى عَنْ غَيْرِ الْمَوْلَى) (القاري، 1422هـ، ج. 8، ص. 3238).

والمعنى: أجعل قلبك غنيًّا بالقناعة والرضا؛ (لأن المقصود بالغنى هنا غنى القلب) (عويضة، د.ت، ج. 1، ص. 207)، فيغنيه عن خلقه، ولا يجعله يتعلّق بالدنيا تعلقَ الفقر والحرص، فيشعر بالاكتفاء ولو كان قليل المال.

قوله: (**وأسد فقرك**): أي: تفرغ عن مهماتك لعبادتي أكفيك حاجتك وأغنيك عن سؤال الناس، أو أُصلح حالك بحيث لا تبقى في ضيقٍ يذلّك ويشغلك (الهرري، 1439هـ، ج. 25، ص. 96).

والمعنى أيضًا: (وَأَسِدَّ بَابَ حَاجَتِكَ إِلَى النَّاسِ) (القاري، 1422هـ، ج. 8، ص. 3238)، فيكون (لا يحتاج إلى أحد، وتشبع نفسه، وتزهد في الدنيا) (المناوي، د.ت، ص. 10).

وقيل: (والمراد أنه لا يبقى للفقر ضرر بل يغنيه الله في نفسه ويبارك له في القليل من ماله) (الصنعاني، 1432هـ، ج. 3، ص. 410).

قوله: (**وإلا تفعل ملأت صدرك شغلًا**): قال: (وإلا تفعل ما أمرتك من الإعراض عن الدنيا، والاشتغال بطاعتي "**ملأت يديك شغلاً**"؛ أي: كثَّرتُ شغلك الدنيويَّ، فتُتعب نفسك بالشغل وكثرة التردُّد في طلب المال والغنى، ولا يحصل لك الغنى، فتُجعل محرومًا من ثوابي، ولا يحصل لك من الرزق إلا ما قدَّرت لك) (الزيداني، 1433هـ، ج. 5، ص. 281).

وفي تعبير بعض الروايات: «**مَلَأْتُ يَدَيكَ شُغْلًا**»، قال: (واليد عبارة عن سائر جوارحه؛ لأن معظم الكسب إنما يتأتى من اليد) (الطيبي، 1417هـ، ج. 10، ص. 3282).

والمعنى: إن لم تتفرغ للعبادة شغلتك بالدنيا والهموم والتعب في طلبها، حتى تنشغل بها عن الراحة والطمأنينة.

قوله: (**ولم أسد فقرك**): قيل: (فتُتعب نفسَك بكثرة الترف وفي طلب المال، ولا تنال من الرزق إلا ما قدَّرتُ لك) (ابن الملَك، 1433هـ، ج. 5، ص. 392)، فيبقى القلب متعلقًا بالحاجة والطلب، ولا يجد الغنى القلبي ولا الكفاية التي تنشرح بها النفس، وقيل: (وَحَاصِلُهُ أَنَّكَ تُتْعِبُ نَفْسَكَ بِكَثْرَةِ التَّرَدُّدِ فِي طَلَبِ الْمَالِ، وَلَا تَنَالُ إِلَّا مَا قَدَّرْتُ لَكَ مِنَ الْمَالِ فِي الْآزَالِ وَتُحْرَمُ عَنْ غِنَى الْقَلْبِ لِتَرْكِ عِبَادَةِ الرَّبِّ) (القاري، 1422هـ، ج. 8، ص. 3238).

ويتضمن الحديث مقابلةً واضحة بين حالين متضادين؛ فحال من تفرغ لعبادة الله تعالى وأقبل عليه بقلبه، قابلها الوعد بامتلاء الصدر غنىً وسد الفقر، في حين أن من أعرض عن ذلك واستولت عليه شواغل الدنيا عوقب بكثرة الشغل وبقاء الفقر.

ثانيًا: المعنى الإجمالي للحديث:

يدل الحديث القدسي على سُنّةٍ إلهية عظيمة في صلاح القلوب؛ وهي أن **التفرغ لعبادة الله تعالى سببٌ لغنى القلب وكفاية العبد وطمأنينة القلب وغناه، وأن الانشغال بالدنيا والإعراض عن العبادة سببٌ لفقر القلب وكثرة الهموم والتعب وعدم الاستغناء الحقيقي**.

وقد أشار ابن القيم رحمه الله إلى هذا المعنى فقال: (وهذا أيضًا من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه، ومقاساة معاداتهم... كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى لهَما ثَالِثا» (البخاري، 1311هـ، رقم 6436؛ مسلم، 1374هـ، رقم 1048)) (ابن قيم الجوزية، د.ت، ج. 1، ص. 37).

وقد بيّن أهل العلم أن **المعنى الإجمالي لهذا الحديث** هو أن الله تعالى يأمر عباده بتفريغ قلوبهم لعبادته، وتقديم طاعته على شواغل الدنيا، فمن فعل ذلك رزقه الله غنى القلب والقناعة، وكفاه ما أهمّه، وصرف قلبه عن التعلق بالدنيا والناس، أما من انشغل بالدنيا وأعرض عن عبادة ربه، فإن الله يبتليه بكثرة الهموم والانشغال، فلا يشبع من متاع الدنيا، ولا يجد الغنى الحقيقي، وإن كثرت أمواله (المناوي، د.ت، ص. 10).

قال أهل العلم: (فمن شغل بالله تعالى، وفارق المعاصي في ظاهره، ونبذ حب الدنيا من قلبه، كان الله سبحانه وتعالى في شغله وآتاه الزوائد من ربه، ووكَّل به حارسًا يحرسه من عنده وجمعه في سيره، وأخذ الله تعالى بيده في جميع أموره، والزوائد زوائد العلم واليقين) (التركماني، 1434هـ، ص. 679).

وبذلك يتبين أن الحديث يقرر مبدأً عظيمًا من مبادئ التربية الإيمانية، وهو **أن صلاح القلب واستغناءه إنما يكون بالإقبال على الله تعالى،**

وأن التعلق بالدنيا وجعلها أكبر الهموم سببٌ لاستمرار الفقر القلبي وكثرة الهموم، مهما اتسعت أسباب الرزق.

ويظهر من سياق الحديث أن **الجزاء جاء من جنس العمل**؛ فمن تفرغ لعبادة الله تعالى، وأقبل عليه بقلبه، ملأ الله صدره غنىً، وسدَّ فقره، فكفاه همَّ الدنيا، ورزقه القناعة والطمأنينة، أما من أعرض عن ذلك، وانشغل بالدنيا حتى استولت على قلبه، عوقب بضد مقصوده؛ فامتلأ قلبه شغلًا، وبقي ملازمًا للفقر، فلا يقنع بما أوتي، ولا يجد راحةً مع كثرة ما يملك.

كما يدل الحديث على أن **الغنى الذي وعد الله به عباده ليس مقصورًا على الغنى المادي، وإنما هو الغنى الحقيقي الذي يكون في القلب**، وهو ثمرة الإيمان والعبادة، فإذا استغنى القلب بالله تعالى هانت عليه الدنيا، وقنع بما قسم الله له، واطمأن إلى قضائه، بخلاف من خلا قلبه من هذا المعنى؛ فإنه يبقى في قلق واضطراب، وإن أوتي من متاع الدنيا ما أوتي.

ويتضح من ذلك أن الحديث القدسي قد جمع بين بيان سبب فقر القلب وبيان علاجه؛ فبيَّن أن أصل الداء هو الانشغال بالدنيا والإعراض عن العبادة، وأن أصل العلاج هو التفرغ لعبادة الله تعالى والإقبال عليه، وهو ما يجعل هذا الحديث أصلًا عظيمًا في بيان حقيقة الغنى القلبي، ومحورًا لما يتناوله هذا البحث من بيان أثر العبادة في تحقيق غنى القلب.

المبحث الأول: العبادة وأثرها في صلاح القلب

المطلب الأول: معنى العبادة وحقيقتها في الإسلام

العبادة في الإسلام **حق واجب من حقوق الله تعالى على عباده**؛ ففي الصحيحين عَنْ مُعَاذٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذ؛ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟»، قلتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قالَ: «فإنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لا يُعَذبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، فقلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَفلا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «لا تُبَشِّرْهُمْ فيَتَّكِلوا..» (البخاري، 1311هـ، رقم 2856؛ مسلم، 1374هـ، رقم 30).

مدارُ العبادةِ في اللغة والشرع يقوم على **التذلّلِ والخضوعِ والانقيادِ**، والعبادةُ في اللغة: مأخوذةٌ من الذلة والطاعة مع الخضوع، فيقال: طريقٌ معبّدٌ، وبعيرٌ معبَّد، أي: مذّلل (الهروي، 2001م، ج. 2، ص. 138؛ ابن منظـور، 1414هـ، ج. 3، ص. 273)، وفي الشرع عبارةٌ عمّا يجمعُ كمالَ المحبّةِ، والخضوعِ، والخوفِ.

وعرّفها ابن تيمية في الاصطلاح بأنها: (**اسْم جَامع لكل مَا يُحِبهُ الله ويرضاه من الْأَقْوَال والأعمال الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة**) (ابن تيمية، 1426هـ، ص. 44).

ويتضح من هذا التعريف شموله لجميع جوانب حياة المسلم، إذ لم يقصر العبادة على الأعمال الظاهرة، بل أدخل فيها أعمال القلوب، مما يدل على أن العبادة مفهوم شامل يجمع الاعتقاد والقول والعمل.

فالعبادة تُعدُّ أصل الدين وأساسه، وهي الغاية الأسمى الذي خُلق الخلق لأجلها، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: 56]، فالعبادة ليست عملًا عارضًا في حياة الإنسان، وإنما هي الغاية التي تدور حولها حياته، وتُبنى عليها علاقته بربه وسائر أعماله.

وتشمل العبادة كُل جوانب الإنسان في حياته؛ أقواله وأفعاله، حركاته وسكناته، ظاهره وباطنه.. إلى غير لك مما له في حياته، وبيانُ ذلك في قول تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: 162، 163]، فهي حقٌ لازمٌ على العبد حتى يموت، لقوله سبحانه: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: 99].

وتدل النصوص على أن العبادة منهج حياةٍ ملازمٌ للمسلم في جميع أحواله، يقوم على دوام الصلة بالله تعالى، وإخلاص القصد له، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، حتى يلقى ربه سبحانه.

قال ابن باز رحمه الله: (دلّت تفاسير العلماء وقول ابن تيمية لمعنى العبادة على «أن العبادة تقتضي: الانقياد التام لله تعالى، أمرًا ونهيًا واعتقادًا وقولًا وعملًا، وأن تكون حياة المرء قائمة على شريعة الله، يحل ما أحل الله ويحرم ما حرم الله، ويخضع في سلوكه وأعماله وتصرفاته كلها لشرع الله، متجردًا من حظوظ نفسه ونوازع هواه») (ابن باز، 1409هـ، ص. 6).

وذلك تأكيدٌ على أن حقيقة العبادة لا تقتصر على أداء الشعائر التعبدية، بل تمتد لتشمل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه في جميع شؤون الحياة.

وقد ذكر أهل العلم أن للعبادة شرطين هما: **الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ**، ومن أدلة ذلك قول ابن تيمية رحمه الله: (وَجِمَاعُ الدِّينِ أَصْلَانِ: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، لَا نَعْبُدُهُ بِالْبِدَعِ، كما قال تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكَهْف: 110]) (ابن تيمية، 1425هـ، ج. 10، ص. 234).

ومن الأدلة على شروط العبادة، قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [لبينة: 5]، فالإخلاص لله تعالى هو أساس قبول العبادة، فلا تصح عبادةٌ يُراد بها غير وجه الله سبحانه، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران: 31]، دليلٌ على أن متابعة النبي ﷺ شرطٌ لصحة العبادة وقبولها، إذ لا يكون التقرب إلى الله تعالى إلا بما شرعه على لسان رسوله ﷺ.

ويتبين مما سبق أن مفهوم العبادة في الإسلام مفهومٌ شامل، لا يقتصر على العبادات المحضة، بل يمتد ليشمل كل ما يقصد به وجه الله تعالى من الأقوال والأعمال، وفق ما جاء به الشرع.

ومن ثم فإن تحقيق العبودية على الوجه الصحيح يُثمر استقامة العبد ظاهرًا وباطنًا، ويجعل حياته قائمة على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.

كما قرر أهل العلم أن **العبادة لا تقوم على مجرد الأعمال الظاهرة، بل أساسها ما يقوم في القلب من كمال المحبة لله تعالى، مع كمال الذل والخضوع له**، ويجتمع في ذلك الخوف والرجاء؛ فالمؤمن يعبد ربه محبًّا له، راجيًا رحمته، خائفًا من عقابه، ولذلك كانت أعمال القلوب أصلًا لأعمال الجوارح، ولا تصح العبادة إلا إذا قام القلب بهذه المعاني الإيمانية.

وبذلك يظهر أن تحقيق العبادة على الوجه المشروع ليس مقصودًا لذاته فحسب، بل هو أصلٌ تترتب عليه آثارٌ إيمانية وتربوية عظيمة في حياة المسلم، وفي مقدمتها صلاح القلب واستقامته.

المطلب الثاني: أثر العبادة في صلاح القلب وتحقيق السكينة

أولًا: العبادة سبب لصلاح القلب:

لما كانت العبادة هي الغاية التي خلق الله تعالى الخلق من أجلها، جعل الله لها آثارًا عظيمة على قلب العبد ونفسه، فهي سببٌ لصلاح القلب واستقامته، وتزكية النفس وطمأنينتها، إذ لا صلاح للقلب إلا بالإقبال على الله تعالى، وإخلاص العبادة له، والأنس بذكره وطاعته.

وقد دلَّ القرآن الكريم على هذا المعنى، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: 28]. فبيَّنت الآية أن ذكر الله تعالى – وهو من أجلِّ العبادات – سببٌ لطمأنينة القلب وسكونه، وأن راحة النفس لا تتحقق إلا بالإقبال على الله تعالى.

وقد بيّن ابن القيم أن صلاح القلب وطمأنينته لا يكونان إلا بتحقيق العبودية لله تعالى، فقال: (فحاجتهم إلى رسالته فوق جميع الحاجات، وضرورتهم إليها مقدَّمة على جميع الضرورات؛ فإنه لا حياةَ للقلوب ولا نعيم ولا لذة ولا سرور ولا أمان ولا طمأنينة إلَّا بأن تَعْرِفَ ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون أحبَّ إليها ممَّا سواه، ويكون سعيُها فيما يقرِّبها إليه ويُدنِيها من مرضاته) (ابن قيم الجوزية، 1442هـ، المقدمة، ص. 17).

ويظهر من كلام ابن القيم أن حياة القلب وطمأنينته ليستا ثمرةً للأسباب المادية، وإنما تتحققان بمعرفة الله تعالى، ومحبته، فكلما أحبَّ العبدُ ربّه، وازداد تحقيقًا لعبوديته ازداد قلبه حياةً وسكينةً، وابتعد عن القلق والاضطراب.

ويمتد أثر العبادة إلى إصلاح سلوك العبد وتقويم أخلاقه؛ إذ إن العبادات المشروعة تزكي النفس، وتغرس مراقبة الله تعالى، وتثمر الاستقامة على أوامره واجتناب نواهيه، فيظهر أثرها في ظاهر العبد كما ظهر في باطنه.

وقد دلَّ القرآن الكريم على الأثر الإصلاحي للعبادة في حياة المؤمن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ [العنكبوت: 45]، قال ابن كثير رحمه الله: (إن المواظبة على الصلاة تحمل على ترك الفواحش والمنكرات) (ابن كثير، 1419هـ، ج. 6، ص. 253)، وفي ذلك دلالة على أن العبادة لا يقتصر أثرها على أداء التكليف، بل تمتد آثارها إلى إصلاح القلب وتقويم السلوك، حتى تنعكس على أخلاق العبد واستقامته.

وهذا المعنى ينسجم مع دلالة الحديث القدسي محل الدراسة؛ فإن الأمر بالتفرغ للعبادة ليس مقصودًا به مجرد الإكثار من الأعمال التعبدية، وإنما ما يترتب عليها من إصلاح القلب، واستقامة السلوك، وتحقيق غنى النفس وطمأنينتها، وهي الثمار التي وعد الله بها من أقبل عليه مخلصًا في عبادته.

ثانيًا: العبادة سبب للطمأنينة والسعادة:

لا يقتصر أثر العبادة على إصلاح القلب وتقويم السلوك، بل يمتد إلى تحقيق الطمأنينة والسعادة الإيمانية؛ إذ إن القلب مفطورٌ على الافتقار إلى ربه، فلا يجد راحته واستقراره إلا بذكر الله تعالى والإقبال عليه، كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: 28]، فدلَّت الآية على أن ذكر الله تعالى هو المصدر الحقيقي لطمأنينة القلب وسكينته، وأن السعادة القلبية لا تُنال بالأسباب المادية، وإنما تتحقق بالإيمان ودوام الصلة بالله تعالى.

ومن آثار العبادة أنها تورث صاحبها لذةً في القلب، وانشراحًا في الصدر، حتى يجد المؤمن في الطاعة من الراحة والأنس ما لا يجده في ملذات الدنيا، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: (أهل الليل في ليلهم ألذُّ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا) (الغزالي، د.ت، ج. 1، ص. 358)، وفي هذا بيانٌ لما يجده أهل العبادة من لذةٍ إيمانيةٍ لا تُقاس باللذات الدنيوية؛ لأنها ناشئة عن قرب القلب من الله تعالى، ودوام الأنس به، كما يدل على أن القرب من الله تعالى يورث من السعادة والطمأنينة ما لا تدركه اللذات الحسية.

وقد كان النبي ﷺ يجد في الصلاة راحةً لقلبه، حتى كان يقول لبلال رضي الله عنه: «يا بلالُ، أقِمِ الصَّلاةَ، أرِحْنا بها» (أبو داود، 1430هـ، رقم 4985؛ الألباني، د.ت، ج. 2، ص. 1307، رقم 7890)، وكان إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة، مما يدل على أن العبادة ملجأ المؤمن عند الشدائد، ومصدر سكينته وطمأنينته، وأنها ليست تكليفًا مجردًا، وإنما هي سببٌ لراحة القلب، ودواءٌ لهموم النفس وأحزانها.

وعلى النقيض من ذلك، بيَّن الله تعالى أن الإعراض عن ذكره سببٌ لضيق الصدر والشقاء، فقال سبحانه: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**﴾ [طه: 124]، فدلَّت الآية على أن السعادة الحقيقية ملازمةٌ لذكر الله تعالى، وأن البعد عنه سببٌ للضيق والاضطراب.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ**﴾ [الزمر: 22]، وقوله سبحانه: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ**﴾ [الأنعام: 125]، فدلَّت الآيتان على أن الهداية والعبادة سببٌ لانشراح الصدر، كما أن الإعراض عن الله تعالى سببٌ لضيقه وحرجه.

وقوله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**» (البخاري، 1311هـ، رقم 6407؛ مسلم، 1374هـ، رقم 779)، فيه بيانٌ لعظم أثر الذكر في حياة القلب، وأن حياة القلوب الحقيقية إنما تكون بالإقبال على الله تعالى.

ومن مجموع هذه النصوص يتبين أن العبادة هي الطريق إلى حياة القلب وسكينته، وأن غنى القلب وطمأنينته لا يتحققان بكثرة ما يملكه الإنسان من متاع الدنيا، وإنما بما يقوم في قلبه من الإيمان بالله تعالى، والأنس بذكره، والإقبال عليه بالطاعة، وهو المعنى الذي دلَّ عليه الحديث القدسي من وعد الله تعالى من تفرغ لعبادته بملء صدره غنىً وكفايته.

ثالثًا: ربط ذلك بالحديث الوارد: «تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى»:

يظهر من خلال ما سبق أن الحديث القدسي قد جمع بين السبب والثمرة؛ فجعل التفرغ لعبادة الله تعالى سببًا، وجعل غنى القلب وسدَّ الفقر ثمرةً لذلك، وهذا يدل على أن العبادة ليست مقصودةً لذاتها فحسب، بل لما يترتب عليها من آثارٍ إيمانية عظيمة في حياة العبد، وفي مقدمتها صلاح القلب، وطمأنينته، واستغناؤه بالله تعالى.

وقوله تعالى في الحديث: «**تفرغ لعبادتي**» لا يراد به الانقطاع عن مصالح الدنيا أو ترك أسباب الرزق، وإنما يراد به أن يكون القلب متفرغًا لله تعالى، مقدمًا محبته وطاعته على سائر الشواغل، بحيث لا تستولي الدنيا على قلب العبد، وإن كانت في يده، فيجمع بين القيام بحقوق ربه، والأخذ بالأسباب المشروعة.

وأما قوله سبحانه: «**أملأ صدرك غنى**» فليس المراد به مجرد الغنى المادي، وإنما غنى القلب الذي يتمثل في القناعة، والرضا، والطمأنينة، والتوكل على الله تعالى، والاستغناء عما في أيدي الناس، وهو الغنى الذي لا يتحقق بكثرة الأموال، وإنما بالإقبال على الله تعالى، ودوام الصلة به.

ويؤكد ذلك ختام الحديث بقوله سبحانه: «**وأسد فقرك**»؛ فإن سد الفقر يشمل فقر القلب قبل فقر المال، إذ إن أعظم أنواع الفقر هو افتقار القلب إلى ربه، فإذا امتلأ القلب بالإيمان، واطمأن بذكر الله تعالى، كفاه الله ما أهمَّه، وأغناه به عما سواه.

فارتباط التفرغ لعبادة الله تعالى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بصلاح القلب وطمأنينته؛ فكلما تحقق العبد بالعبودية ازداد قلبه حياةً وسكينةً وغنىً، وكلما انشغل عن ربه بالدنيا وما فيها ازداد فقره واضطرابه.

فالحديث القدسي يرسم منهجًا متكاملًا لعلاج فقر القلب؛ فبدأ بالأمر بالتفرغ للعبادة، ثم بيَّن ثمرتها في امتلاء القلب بالغنى، وكفاية العبد، وهو ما ينسجم مع ما دلت عليه النصوص الشرعية من أن صلاح القلب، وطمأنينته، وسعادته، لا تتحقق إلا بالإقبال على الله تعالى، ودوام عبادته وذكره.

المبحث الثاني: غنى القلب وفقره في ضوء الحديث

المطلب الأول: الفرق بين الغنى المادي وغنى النفس

يُعدُّ مفهوم الغنى من المفاهيم التي تختلف باختلاف نظرة الإنسان إلى الحياة؛ فالغنى عند كثير من الناس يرتبط بما يملكه الإنسان من مالٍ ومتاعٍ ومكانة، بينما يقرر التصور الإسلامي أن الغنى الحقيقي أعمق من ذلك، إذ يتعلق بما يستقر في القلب من القناعة والرضا بالله

تعالى، والاستغناء عما في أيدي الخلق.

وقد بيَّن النبي ﷺ حقيقة الغنى فقال: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**» (البخاري، 1311هـ، رقم 6446؛ مسلم، 1374هـ، رقم 1051)، فدلَّ الحديث على أن كثرة المال ليست هي المعيار الحقيقي للغنى، فقد يملك الإنسان أموالًا كثيرة وقلبه ممتلئٌ حرصًا وفقرًا، بينما يكون قليل المال غنيَّ النفس بما رزقه الله من القناعة والرضا.

ومن مقتضى غنى النفس في التصور الإسلامي ألا يجعل العبد الدنيا أكبر همِّه، ولا أن تكون غايته التي يسعى إليها، وإنما يتعامل معها باعتبارها وسيلةً تعينه على تحقيق الغاية التي خلق من أجلها، وهي عبادة الله تعالى، ولذلك كان من هدي السلف الصالح أن تكون الدنيا في أيديهم لا في قلوبهم؛ يأخذون منها ما يعينهم على طاعة الله، دون أن تستولي على قلوبهم أو تصرفهم عن مقصدهم الأعظم.

ويظهر هذا المعنى في سِيَر الصحابة ﷺ؛ فقد كانوا يأخذون من الدنيا ما يعينهم على طاعة الله، دون أن يجعلوا تعلقهم بها صارفًا لهم عن تحقيق العبودية له سبحانه.

ويظهر هذا المعنى في سير الصحابة ﷺ؛ فقد كان أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ﷺ من ذوي الأموال، ومع ذلك لم تكن الدنيا أكبر همهم، بل بذلوها في طاعة الله تعالى ونصرة دينه، فدل ذلك على أن الغنى الممدوح ليس ترك المال، وإنما عدم تعلق القلب به.

وهذا المعنى هو الذي يشير إليه الحديث القدسي محل الدراسة في قوله تعالى: «**أملأ صدرك غنى**»، فإن الغنى الموعود به ليس مجرد كثرة ما يحصل عليه العبد من متاع الدنيا، وإنما هو غنى القلب الذي يتحقق بالقرب من الله تعالى، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والقناعة بما قسمه لعبده، وقد قرر ابن القيم أن الغنى الحقيقي هو غنى القلب، فقال: (وَكَذَلِكَ الْغِنَى هُوَ غِنَى الْقَلْبِ بِحُصُولِ مَحْبُوبِهِ) (ابن قيم الجوزية، 1441هـ، ج. 3، ص. 394)، أي: بحصول أعظم محبوب للعبد وهو الله تعالى والقرب منه، فدلَّ كلامه على أن حقيقة الغنى لا تُقاس بما يملكه الإنسان من متاع الدنيا، وإنما بما يقوم في قلبه من محبة الله تعالى، والتعلق به، والاستغناء به عما سواه.

ويؤكد ابن عبد البر المعنى، فيقرر أن حقيقة الغنى ليست فيما يملكه الإنسان من متاع الدنيا، وإنما فيما يضعه الله تعالى في قلبه من الغنى، فيقول: (بل هو غنى القلب، فمن وضع الله الغنى في قلبه فقد أغناه، وكان النبي ﷺ أغنى عباد الله قلبًا) (ابن عبد البر، 1414هـ، ج. 1، ص. 740)، وهو تقرير ينسجم مع دلالة الحديث النبوي: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»، ومع الحديث القدسي في وعد الله تعالى بملء صدر العبد غنى إذا تفرغ لعبادته.

ويؤكد هذا المعنى أيضًا ما ذكره القشيري عند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [النور: 32]، إذ قال: (يغنيهم الله في الحال، أولا بالنفس ثم غنى القلب وغنّى القلب غني عن الشيء، فالغني عن الدنيا أتمّ من الغنى بالدنيا) (القشيري، د.ت، ج. 2، ص. 609)، ويظهر من كلامه أن الغنى الذي يمنحه الله لعباده يبدأ بإغناء القلوب، وأن الاستغناء عن الدنيا أكمل من مجرد الغنى بها، وهو معنى يلتقي مع دلالة الحديث القدسي في قوله تعالى: «**أملأ صدرك غنى**».

وقد جعل أبو إسماعيل الهروي أول مراتب الغنى هو غنى القلب، فقال: (الغنى على ثلاث درجات، الدرجة الأولى: غنى القلب، والدرجة الثانية: غنى النفس، والدرجة الثالثة: الغنى بالحق) (الهروي، د.ت، ص. 73)، مما يدل على أن الغنى الحقيقي يبدأ بإصلاح القلب وسلامته، قبل ما يكون من وفرة المال أو كثرة الأسباب، وهو المعنى الذي ينسجم مع الحديث القدسي في قوله تعالى: «**أملأ صدرك غنى**».

ويؤكد هذا المعنى ما روي عن رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «الْغِنَى فِي الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فِي الْقَلْبِ، مَنْ كَانَ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ لَا يَضُرُّهُ، مَا لَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَنْ كَانَ الْفَقْرُ فِي قَلْبِهِ، فَلَا يُغْنِيهِ مَا أَكْثَرَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ شُحُّهَا» (الطبراني، د.ت، ج. 2، ص. 154، رقم 1643؛ ابن حبان، 1433هـ، ج. 4، ص. 386، رقم 3632)، **ويدل هذا الأثر على أن حقيقة الغنى والفقر إنما ترجع إلى حال القلب،** لا إلى كثرة المال أو قلته؛ فمن امتلأ قلبه بالقناعة والرضا والاستغناء بالله لم تضره تقلبات الدنيا، أما من افتقر قلبه إلى الدنيا فلن تشبعه كثرة ما يملك منها، وهو المعنى الذي دل عليه الحديث القدسي في قوله تعالى: «**أملأ صدرك غنى**».

وقد ربط القرآن الكريم بين الإيمان والعمل الصالح وبين تحقيق الحياة الطيبة، فقال الله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ [النحل: 97]، فدلت الآية على أن السعادة الحقيقية ثمرةٌ للإيمان والطاعة، وأنها ليست مرتبطةً بما يحوزه الإنسان من متاع الدنيا.

وفي حديث مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُبَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَمِّهِ، قَالَ:

كُنَّا فِي مَجْلِسٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَعَلَى رَأْسِهِ أَثَرُ مَاءٍ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُنَا: نَرَاكَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ، فَقَالَ: «أَجَلْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ» ثُمَّ أَفَاضَ الْقَوْمُ فِي ذِكْرِ الْغِنَى، فَقَالَ: «لَا بَأْسَ بِالْغِنَى لِمَنِ اتَّقَى، وَالصِّحَّةُ لِمَنِ اتَّقَى خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى، وَطِيبُ النَّفْسِ مِنَ النَّعِيمِ» (ابن ماجه، 1430هـ، ج. 3، ص. 273، رقم 2140؛ الألباني، د.ت، ج. 1، ص. 336، رقم 174).

وفي هذا الحديث **بيانٌ أن الغنى المادي لا يُذم في ذاته إذا اقترن بالتقوى**، وإنما النعيم الأعظم هو طيب النفس وراحة القلب، وهي معانٍ لا تحصل بمجرد كثرة المال، وإنما بما يمنحه الله تعالى لعبده من الإيمان والقناعة.

ولا يعني بيان أن الغنى الحقيقي هو غنى النفس التقليل من شأن المال أو ذم السعي في تحصيله؛ فإن المال من نعم الله تعالى على عباده إذا اكتُسب من الطرق المشروعة، واستُعمل فيما يرضي الله تعالى، وقد أرشد القرآن الكريم إلى السعي في طلب الرزق، قال تعالى: ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾ [الملك: 15]، وإنما المقصود أن المال ليس غايةً في ذاته، ولا أنه المصدر الوحيد للسعادة، بل هو وسيلةٌ ينتفع بها الإنسان في تحقيق مصالحه الدنيوية والأخروية.

فالإنسان وإن كان محتاجًا إلى ما يقيم حياته من أسباب مادية، إلا أن حاجته لا تقتصر على الجانب المادي؛ إذ له قلبٌ وروحٌ لا يصلحان إلا بالإيمان والقرب من الله تعالى، ولذلك قد يملك الإنسان من أسباب الرفاه ما يملك، ثم لا يجد الطمأنينة إذا خلا قلبه من القناعة والرضا، بينما قد يعيش آخر مع قلة ذات اليد وهو ممتلئ القلب سكينةً ورضًا بما قسم الله له.

ومن هنا يظهر أن الغنى المادي يتعلق بما يملكه الإنسان من أسباب خارجية، أما غنى النفس فيتعلق بما يقوم في القلب من القناعة والرضا والطمأنينة؛ ولهذا قد يكون قليل المال غنيَّ النفس إذا امتلأ قلبه بالإيمان، بينما قد يفتقر صاحب المال الكثير إلى السعادة إذا خلا قلبه من معرفة الله تعالى والأنس بعبادته سبحانه.

ويتبين مما سبق أن الإسلام لا يعارض امتلاك المال ولا السعي في تحصيله، وإنما يوجه القلب إلى ألا يجعل المال غايته، بل وسيلةً تعينه على طاعة الله تعالى، ومن ثم كان الغنى الحقيقي هو ما استقر في القلب من القناعة والرضا، والاستغناء بالله تعالى، وهو الغنى الذي وعد الله به في الحديث القدسي من تفرغ لعبادته، فامتلأ صدره غنى، وسد الله فقره.

المطلب الثاني: أثر الانشغال بالدنيا في فقر القلب

دلَّ الحديث القدسي على أن انشغال العبد عن التفرغ لعبادة الله تعالى بما يصرفه عنها سببٌ لحرمانه من الغنى الحقيقي الذي وعد الله به عباده، فقال سبحانه: «**تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ**»، وذلك دليل على أن الانشغال بالدنيا على حساب العبادة لا يورث صاحبه الغنى، بل يزيده افتقارًا واضطرابًا، مهما كثرت أسباب الرزق ومتاع الحياة.

وليس المراد بالانشغال بالدنيا مجرد السعي في طلب الرزق أو القيام بأسباب المعاش؛ فإن ذلك مما أذن الله تعالى به، بل قد يكون عبادةً إذا صلحت فيه النية، وإنما المذموم أن تستولي الدنيا على القلب، فتكون أكبر همِّ الإنسان، وتصرفه عن طاعة الله تعالى، وتضعف تعلقه بالآخرة، فيصبح أسيرًا للطمع، لا يقنع بما آتاه الله، ولا يهنأ بما بين يديه.

وقد حذَّر النبي ﷺ من الافتتان بالدنيا والتنافس عليها، مبينًا أن الخطر الحقيقي ليس في الفقر، وإنما في تعلُّق القلوب بزخارف الدنيا، فقال ﷺ: «وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» (البخاري، 1311هـ، رقم 6425؛ مسلم، 1374هـ، رقم 2961)، ويدل الحديث على أن استغراق القلب في طلب الدنيا، والتنافس عليها، يورث التعلق بها، ويضعف الإقبال على الآخرة، حتى يكون سببًا لهلاك الإنسان، وإن كان في سعةٍ من الرزق؛ لأن فقر القلب إنما ينشأ من شدة التعلق بالدنيا، لا من قلة المال.

ومن النصوص الدالة على أثر تعلق القلب بالدنيا ما رواه النبي ﷺ لحكيم بن حزام ﷺ، إذ قال: «يَا حَكِيمُ بْنَ حِزَامٍ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ، وَحُسْنِ أُكْلَةٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ، وَسُوءِ أُكْلَةٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» (البخاري، 1311هـ، رقم 1472)، فدلَّ الحديث على أن المال لا يُذم لذاته، وإنما المذموم تعلق القلب به والحرص عليه، فإن الطمع يمنع القناعة ويذهب بركة ما في يد الإنسان.

وقد نبَّه القرآن الكريم إلى خطورة الانشغال بالدنيا إذا ألهت العبد عن طاعة الله تعالى، وبيَّن أن المال والأولاد قد يكونان سببًا للابتلاء والاختبار، فقال سبحانه: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾

[الأنفال: 28]، كما بيَّن حقيقة الدنيا وزوالها بقوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾ [الحديد: 20]، ثم ذمَّ الانشغال بالتكاثر الذي يصرف القلب عن الآخرة، فقال سبحانه: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾ [التكاثر: 1-2]، وتدل هذه الآيات مجتمعةً على أن المذموم ليس امتلاك المال أو السعي في تحصيله، وإنما استيلاء محبة الدنيا على القلب حتى تشغله عن ذكر الله تعالى والاستعداد للآخرة، وهو ما يورث فقر القلب، ويحرمه من الغنى الحقيقي الذي وعد الله به أهل الإيمان والعبادة.

ويؤكد هذا المعنى ما رواه ثوبان ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ» (أبو داود، 1430هـ، رقم 4297؛ الألباني، د.ت، ج. 2، ص. 647، رقم 958)، فبيَّن النبي ﷺ أن سبب الضعف ليس قلة العدد أو نقص الإمكانات، وإنما ما يصيب القلوب من التعلق بالدنيا، حتى يزول أثر الإيمان في النفوس.

ويتبين من النصوص السابقة أن التحذير من الدنيا ليس مقصودًا به ذمُّها لذاتها، وإنما التحذير من تعلق القلب بها حتى تصبح غاية الإنسان وأكبر همِّه؛ فإن استيلاء محبتها على القلب يضعف تعلُّقه بالآخرة، ويصرفه عن الغاية التي خُلق من أجلها، وهي عبادة الله تعالى، وكلما ازداد القلب انشغالًا بزخارف الدنيا وشهواتها، ضعف إقباله على الطاعة، واستولى عليه طول الأمل، حتى يورثه ذلك الغفلة عن الآخرة، والبُعد عنها.

ومن هذه المعاني ما روي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ اثْنَيْنِ: طُولَ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعَ الْهَوَى، فَإِنَّ طُولَ الْأَمَلِ يُنْسِي الْآخِرَةَ، وَإِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدِ ارْتَحَلَتْ مُدْبِرَةً، وَالْآخِرَةُ مُقْبِلَةٌ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ» (ابن المبارك، د.ت، ص. 86، رقم 255).

ومن مظاهر فقر القلب أن تُلهي الأموال والأولاد صاحبها عن ذكر الله تعالى وأداء حقوقه، ولذلك حذَّر الله سبحانه المؤمنين من ذلك فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [المنافقون: 9]، فدلَّت الآية على أن المذموم ليس المال في ذاته، وإنما انشغال القلب به حتى يصرف صاحبه عن ذكر الله تعالى وطاعته، وذلك من أعظم أسباب الخسران وفقر القلب.

وقد بيَّن ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ [القصص: 77]، أن الله تعالى أرشد إلى استعمال المال فيما يقرب إلى الآخرة، مع الانتفاع بالمباح من أمور الدنيا، وفي ذلك بيان للتوازن الذي جاءت به الشريعة؛ فلا يُذم طلب الدنيا بإطلاق، وإنما يُذم أن تكون غايةً تشغل عن الآخرة.

وخلاصة ذلك: أن فقر القلب لا يكون بسبب قلة ما يملكه الإنسان من الدنيا، وإنما بسبب تعلقه بها وانشغاله عن الله تعالى، فكلما استولت محبة الدنيا على القلب ضعُف فيه معنى العبودية، وابتعد عن السكينة التي لا تُنال إلا بالقرب من الله تعالى، ومن هنا يظهر وجه المناسبة بين هذا المطلب والحديث القدسي محل الدراسة؛ فإن علاج فقر القلب لا يكون بكثرة التملك والانشغال بالدنيا، وإنما بتعلق القلب بالله تعالى والتفرغ لعبادته سبحانه.

المطلب الثالث: علاج فقر القلب بالعبادة والذكر

إن علاج فقر القلب لا يكون بمجرد تحصيل المزيد من أسباب الدنيا، وإنما يكون بإصلاح صلة العبد بربه، وتحقيق العبودية التي خُلق الإنسان من أجلها؛ فإن القلب لا يزكو ولا يستغني إلا بالقرب من الله تعالى، والقيام بما أوجبه من الطاعات، والإكثار من ذكره سبحانه، وقد دلَّ الحديث القدسي محل الدراسة على هذا المعنى بوضوح، في قوله تعالى: «**تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ**»، فجعل سبحانه غنى الصدر وثمرته الحقيقية مرتبطةً بالتفرغ لعبادته، لا بكثرة ما يحوزه الإنسان من متاع الدنيا؛ لأن العبادة تصل القلب بمصدر الغنى الحقيقي، وهو الله تعالى.

فالعبادة ليست مجرد أعمال ظاهرة يؤديها العبد بجوارحه، وإنما هي معنى شامل يتضمن خضوع القلب لله تعالى، وإقباله عليه، وامتلاءه بمحبة الله وتعظيمه ورجائه وخوفه، ولذلك كانت سببًا في صلاح القلب وطمأنينته، وكلما ازداد العبد قربًا من الله تعالى بالطاعة والذكر، انكشف عنه ما في قلبه من القلق والاضطراب، وحلَّ محله الرضا والسكينة والأنس بالله تعالى.

ويُعدُّ صلاح القلب الأساس الذي تقوم عليه صلاح أحوال العبد كلها؛ ولذلك جاءت النصوص الشرعية بالعناية البالغة بالقلب،

وبيان أن تزكيته وإصلاحه من أعظم مقاصد العبادة، وقد حذَّر القرآن الكريم من قسوة القلب، وربطها بالإعراض عن هدى الله وطول الأمد، فقال تعالى: ﴿**وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الحديد: 16]، وقال سبحانه: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ [البقرة: 74]، مما يدل على أن **قسوة القلب وفقره من أعظم الآثار المترتبة على الغفلة والإعراض عن ذكر الله تعالى**، وأنها تحول بين العبد وبين الانتفاع بالمواعظ والهدى، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**﴾ [طه: 124]، فدلَّت الآية على أن الإعراض عن ذكر الله تعالى سببٌ لضيق المعيشة وشقاء القلب، وأن حياة القلب وغناه إنما يكونان بالإقبال على الله تعالى ودوام ذكره.

ومن الأسباب التي تحول بين القلب وبين صلاحه وبركته أكل الحرام والتغذي به؛ فقد قال النبي ﷺ في شأن الرجل الذي يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: «يَا رَبِّ، يَا رَبِّ»، ثم قال: «وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ» (مسلم، 1374هـ، رقم 1015)، وفي ذلك دلالة على أن المعاصي، ولا سيما أكل الحرام، من أعظم أسباب حرمان القلب من آثار العبادة وبركاتها.

ولهذا اعتنت الشريعة بإصلاح القلب، وجعلت صلاحه أساس صلاح الإنسان كله، فقال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (البخاري، 1311هـ، رقم 52؛ مسلم، 1374هـ، رقم 1599)، فدلَّ الحديث على أن إصلاح القلب هو أصل إصلاح الظاهر والباطن، كما قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (مسلم، 1374هـ، رقم 2564)، وفي ذلك بيان لمكانة القلب في ميزان الشرع، وأن العبرة بصلاحه وما يقوم فيه من الإيمان والإخلاص، وهو ما يتحقق بالعبادة ودوام ذكر الله تعالى.

وعلى النقيض من قسوة القلب وضيقه، جعل الله تعالى الهداية والإقبال عليه سببًا لشرح الصدر وانشراحه، فقال سبحانه: ﴿**أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ**﴾ [الزمر: 22]، وقال تعالى: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ**﴾ [الأنعام: 125]، وتدل الآيتان على أن الهداية التي يوفق الله إليها عبده تثمر انشراح الصدر وطمأنينته، وأن ضيق الصدر من آثار الإعراض عن الله تعالى، وهذا المعنى يتفق مع دلالة الحديث القدسي في قوله تعالى: «**تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى**»؛ إذ إن امتلاء الصدر بالغنى يستلزم انشراحه بالإيمان، وسكينته بذكر الله تعالى، واطمئنانه بالقرب منه.

وهذا الانشراح الذي يملأ القلب بالإيمان والطمأنينة هو حقيقة الغنى الذي وعد الله به عباده، ولذلك قرر ابن القيم أن أعظم أنواع الفقر هو فقر القلب إلى ربه، فقال، فقال: (فَإِنَّهُ لَا فَقْرَ أَتَمُّ مِنْ فَقْرِ الْقَلْبِ إِلَى مَنْ يُحِبُّهُ... هَذَا حَقِيقَةُ الْفَقْرِ عِنْدَ الْعَارِفِينَ) (ابن قيم الجوزية، 1441هـ، ج. 3، ص. 394)، ويبين بذلك أن حقيقة الفقر ليست فقر المال، وإنما افتقار القلب إلى ربه سبحانه، وأن علاجه لا يكون بكثرة تحصيل متاع الدنيا، وإنما بتحقيق محبة الله تعالى، والإقبال عليه بالعبادة والذكر، وهو المعنى الذي دل عليه الحديث القدسي في قوله تعالى: «**تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ**».

ومن أعظم ما يعين على حياة القلب ويزيده غنىً تلاوة القرآن الكريم وتدبره؛ لأنه أصل الهداية والشفاء، ومن أعظم أسباب صلاح القلب ونوره وسعته، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾ [ص: 29]، وقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ [الإسراء: 9]. فكلما ازداد العبد إقبالًا على كتاب الله، ازداد قلبه حياةً وغنىً وانشراحًا.

وقد بيَّن ابن القيم أن من أعظم آثار الإقبال على الله تعالى بالعبادة والتوحيد شرح الصدر وانشراحه، وأن الهدى والإيمان من أعظم أسباب ذلك، فقال: (فَالْهُدَى وَالتَّوْحِيدُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ، وَالشِّرْكُ وَالضَّلَالُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضِيقِ الصَّدْرِ وَانْحِرَاجِهِ) (ابن قيم الجوزية، 1440هـ، ج. 2، ص. 28)، وهذا يوافق دلالة الحديث القدسي؛ إذ إن امتلاء الصدر بالغنى لا يتحقق إلا مع امتلائه بالإيمان والتوحيد، فكلما ازداد العبد تعلقًا بربه واتسع قلبه بالإيمان، تحقق له الغنى الذي وعد الله به.

كما أن نور الإيمان من أعظم ما يحيي القلب ويشرح الصدر، ولذلك قال ابن القيم أن: «النُّورُ الَّذِي يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، وَهُوَ نُورُ الْإِيمَانِ، فَإِنَّهُ يَشْرَحُ الصَّدْرَ وَيُوَسِّعُهُ وَيُفْرِحُ الْقَلْبَ، فَإِذَا فُقِدَ هَذَا النُّورُ مِنْ قَلْبِ الْعَبْدِ ضَاقَ وَحَرَجَ» (ابن قيم الجوزية، 1440هـ)، فغنى القلب مرتبط بما يودعه الله فيه من نور الإيمان، لا بما يملكه صاحبه من متاع الدنيا.

وقد بيَّن الله تعالى أن ذكره هو أعظم أسباب حياة القلوب وطمأنينتها، فقال سبحانه: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ**

اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، فدلت الآية على أن الطمأنينة الحقيقية لا تتحقق بكثرة الأسباب الدنيوية، وإنما بما يقوم في القلب من الإيمان والذكر والاتصال بالله تعالى؛ إذ إن القلب مهما حصل له من متاع الدنيا يبقى محتاجًا إلى ما يملؤه من المعاني الإيمانية التي تمنحه السكينة والاستقرار.

ومن ثمرات العبادة كذلك أنها تُعيد ترتيب أولويات القلب؛ فتجعل رضوان الله تعالى غايته الأولى، وتُضعف سلطان الدنيا عليه، فيزول عنه التعلق المفرط بالأسباب، ويحل محله التوكل على الله تعالى، والرضا بقضائه، والقناعة بما قسمه، وهي المعاني التي يتحقق بها غنى القلب الذي دلَّ عليه الحديث القدسي.

ومن أعظم صور غنى القلب التي تحققها العبادة: القناعة بما قسم الله تعالى، والاستغناء عما في أيدي الناس، وعدم جعل الدنيا محور اهتمام العبد وغاية سعيه؛ فالمؤمن حين يمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى والثقة بحكمته وتدبيره، لا يصبح أسيرًا لما يفوته من الدنيا، ولا يضطرب لفقد شيء من متاعها؛ لأنه يعلم أن ما عند الله خير وأبقى، ولهذا كان النبي ﷺ يسأل الله تعالى غنى النفس، كما قال ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**» (مسلم، 1374هـ، رقم 2721)، فجمع بين الهداية والتقوى والعفاف والغنى؛ لأن الغنى الحقيقي هو غنى النفس الذي يقوم على استقامة القلب وقناعته بالله تعالى.

وتتحقق هذه المعاني كلها بحسن الاستقامة على طاعة الله تعالى، وصدق متابعة رسوله ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: 31]، فكلما كمل اتباع العبد لربه ورسوله ازداد نصيبه من طمأنينة القلب وغناه بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿**فَاتَّبِعُونِي**﴾ أي: عقيدة وقولًا، وفعلًا وتركًا، في المنشَط والمكرَه، وقد رتَّب الله تعالى على هذا الاتباع أعظم الجزاء حيث قال سبحانه: ﴿**يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه؛ وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء: (ليس الشأنُ أن تُحِبَّ، إنَّما الشأنُ أن تُحَبَّ) (ابن كثير، 1419هـ، ج. 2، ص. 27)، أي: (في أن يُحِبَّك الله، ولا يحبك الله إلا إذا اتَّبعت حبيبه ظاهرًا وباطنًا، وصَدَّقتَه خبرًا، وأطعته أمرًا، وأجبتَه دعوة، وآثرته طوعًا، وفَنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تَتَعَنَّ، وارجع مِنْ حيث شئتَ؛ فالتمس نورًا فلستَ على شيء) (ابن قيم الجوزية، 1441هـ، ج. 3، ص. 412).

ومن كلام ابن القيم يتبين أن تحقيق متابعة النبي ﷺ هو الطريق إلى كمال العبودية، ومن ثم إلى ما وعد الله به في الحديث القدسي من غنى القلب، وانشراح الصدر، وكفاية العبد في دنياه وآخرته.

ومن ذلك يتبين أن الحديث القدسي قد جمع أصل العلاج لمشكلة فقر القلب؛ **فالتفرغ لعبادة الله تعالى لا يعني ترك أسباب الحياة أو الانقطاع عن مصالح الدنيا، وإنما يعني أن تكون العبادة هي الأصل الذي تنتظم حوله حياة الإنسان، وألا تستولي الدنيا على قلبه أو تصرفه عن غايته الكبرى، فإذا تحقق ذلك امتلأ قلب العبد غنىً بالله تعالى، وامتلأ صدره طمأنينةً وسكينةً، ووجد من الرضا والقناعة ما لا تمنحه كثرة الأموال ولا وفرة الممتلكات**؛ لأن الغنى الحقيقي إنما هو غنى القلب، ولا صلاح له إلا بالقرب من الله تعالى، وتحقيق عبوديته، وصدق متابعة رسوله ﷺ.

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث، وبعد دراسة الحديث القدسي: «يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسُدَّ فقرك...» دراسةً عقديةً حديثية، وبيان ما يتضمنه من معانٍ تتعلق بحقيقة العبادة والغنى القلبي وأثر التعلق بالله تعالى؛ توصل البحث إلى النتائج الآتية:

1. أن العبادة هي الغاية التي خُلق الإنسان لتحقيقها، وأن صلاح القلب وطمأنينته مرتبطان بتحقيق العبودية لله تعالى والإقبال عليه.
2. أن الغنى الحقيقي في التصور الإسلامي هو غنى القلب، القائم على القناعة والرضا بالله تعالى والاستغناء به عما في أيدي الخلق، وليس كثرة المال ومتاع الدنيا.
3. أن التفرغ للعبادة الوارد في الحديث لا يعني ترك أسباب الحياة ومصالح الدنيا، وإنما يعني ألا تستولي الدنيا على القلب أو تصرفه عن غايته في عبادة الله تعالى.
4. أن الانشغال بالدنيا على حساب العبادة من أسباب فقر القلب واضطرابه، مهما كثرت أسباب الرزق ومتاع الحياة؛ لأن الفقر الحقيقي فقر القلب إلى الله تعالى.
5. أن العبادة والذكر والإقبال على الله تعالى من أهم أسباب علاج فقر القلب وتحقيق الغنى والسكينة؛ لارتباطها بإصلاح القلب وتقوية صلته بربه سبحانه.
6. أن الحديث القدسي يجمع بين أصلين متلازمين: التفرغ لعبادة الله تعالى، وما يترتب عليه من غنى القلب وكفاية العبد؛ مما يؤكد أن الغنى القلبي ثمرة من ثمار تحقيق العبودية.
7. أن الإسلام لا يعارض امتلاك المال والسعي في تحصيله، وإنما يصحح

علاقة الإنسان به، بحيث يكون المال وسيلةً تعينه على الطاعة، لا غايةً تستولي على قلبه وتصرفه عن الله تعالى.

8. أن كمال الغنى القلبي يتحقق بالإيمان والعبادة والقناعة والرضا، ولا يتوقف على وفرة الممتلكات؛ فقد يجتمع قلة المال مع غنى النفس، كما قد تجتمع كثرة المال مع فقر القلب.

9. أن الحديث القدسي يقدم منهجًا إيمانيًا متكاملًا في معالجة فقر القلب، أساسه التعلق بالله تعالى، والتفرغ لعبادته، والإكثار من ذكره، وعدم جعل الدنيا غايةً تستغرق القلب.

10. أن حقيقة السعادة والطمأنينة لا تتحقق بكثرة ما يملكه الإنسان من متاع الدنيا، وإنما بتحقيق الصلة بالله تعالى والقيام بمقتضى العبودية له سبحانه.

المصادر والمراجع:

– أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (1430هـ)، سنن أبي داود، شعيب الأرنؤوط ومُحَمَّد كامل قره بللي، محققان، الطبعة الأولى، دار الرسالة العالمية.

– ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله، (1409هـ)، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، كمال يوسف الحوت، تقديم وضبط، الطبعة الأولى، دار التاج، مكتبة الرشد، مكتبة العلوم والحكم.

– ابن المبارك، عبد الله المروزي، (د.ت.)، الزهد والرقائق، حبيب الرحمن الأعظمي، محقق، نسخة الشاملة.

– ابن المِلَك، مُحَمَّد عز الدين، (1433هـ)، شرح مصابيح السنة للإمام البغوي، نور الدين طالب، تحقيق ودراسة، الطبعة الأولى، إدارة الثقافة الإسلامية.

– ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله، (1409هـ)، وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه، الطبعة الخامسة، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

– ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (1426هـ)، العبودية، مُحَمَّد زهير الشاويش، محقق، الطبعة السابعة، المكتب الإسلامي.

– ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (1425هـ)، مجموع الفتاوى، عبد الرحمن بن قاسم، جمع وترتيب، مجمع الملك فهد.

– ابن حبان، أبو حاتم مُحَمَّد بن حبان البستي، (1433هـ)، صحيح ابن حبان: المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها، مُحَمَّد علي سونمز وخالص آي دمير، محققان، الطبعة الأولى، دار ابن حزم.

– ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن مُحَمَّد، (1416هـ)، مسند الإمام أحمد، أحمد مُحَمَّد شاكر، محقق، الطبعة الأولى، دار الحديث.

– ابن عبد البر، أبو عمر يوسف، (1414هـ)، جامع بيان العلم وفضله، أبو الأشبال الزهيري، محقق، الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي.

– ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر، (1440هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، الطبعة الثالثة، دار عطاءات العلم، دار ابن حزم.

– ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر، (د.ت.)، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، مُحَمَّد حامد الفقي، محقق، مكتبة المعارف.

– ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر، (1442هـ)، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، حسين عكاشة رمضان، محقق، الطبعة الأولى، دار عطاءات العلم، دار ابن حزم.

– ابن قيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر، (1441هـ)، مدارج السالكين في منازل السائرين، الطبعة الثانية، دار عطاءات العلم، دار ابن حزم.

– ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (1419هـ)، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية.

– ابن ماجه، أبو عبد الله مُحَمَّد بن يزيد القزويني، (1430هـ)، سنن ابن ماجه، شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، مُحَمَّد كامل قره بللي، وعبد اللطيف حرز الله، محققون، الطبعة الأولى، دار الرسالة العالمية.

– ابن منظور، جمال الدين مُحَمَّد، (1414هـ)، لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر.

– الألباني، مُحَمَّد ناصر الدين، (1421هـ)، صحيح الترغيب والترهيب، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

– الألباني، ناصر الدين، (د.ت.)، صحيح الجامع الصغير وزياداته، المكتب الإسلامي.

– البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل، (1311هـ)، صحيح البخاري، الطبعة السلطانية، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق.

– البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، (1421هـ)، شعب الإيمان، مُحَمَّد السعيد بن بسيوني زغلول، محقق، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية.

– التركماني، إدريس بن بيدكين، (1434هـ)، اللمع في الحوادث والبدع، دار الكوثر للتراث، تحقيق، الطبعة الأولى، دار ابن حزم.

– الترمذي، أبو عيسى مُحَمَّد، (1430هـ)، الجامع الكبير، شعيب الأرنؤوط، تحقيق وتخريج وتعليق، الطبعة الأولى، دار الرسالة العلمية.

– الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله مُحَمَّد، (1411هـ)، المستدرك على الصحيحين، مصطفى عبد القادر عطا، دراسة وتحقيق، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية.

– الزيداني، الحسين مظهر الدين، (1433هـ)، المفاتيح في شرح المصابيح، لجنة مختصة من المحققين، تحقيق ودراسة، بإشراف نور الدين طالب، الطبعة الأولى، دار النوادر، إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف الكويتية.

– السندي، مُحَمَّد بن عبد الهادي، (د.ت.)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه، دار الجيل.

– الصنعاني، مُحَمَّد بن إسماعيل، (1432هـ)، التنوير شرح الجامع الصغير، مُحَمَّد إسحاق إبراهيم، محقق، الطبعة الأولى، مكتبة دار السلام.

– الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، (د.ت.)، المعجم الكبير، حمدي بن عبد المجيد السلفي، محقق، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية.

– الغزالي، أبو حامد مُحَمَّد، (د.ت.)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة.

– القاري، علي بن سلطان، (1422هـ)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الطبعة الأولى، دار الفكر.

– القشيري، عبد الكريم بن هوازن، (د.ت.)، لطائف الإشارات = تفسير القشيري،

إبراهيم البسيوني، محقق، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

– المناوي، زين الدين عبد الرؤوف، (د.ت.)، الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، عبد القادر الأرناؤوط وطالب عواد، تحقيق وتعليق، دار ابن كثير.

– الهرري، مُحَمَّد الأمين، (1439هـ)، شرح سنن ابن ماجه للهرري: مرشد ذوي الحجا والحاجة إلى سنن ابن ماجه، الطبعة الأولى، دار المنهاج.

– الهروي، أبو إسماعيل عبد الله، (د.ت.)، منازل السائرين، دار الكتب العلمية.

– الهروي، مُحَمَّد بن أحمد، (2001م)، تهذيب اللغة، مُحَمَّد عوض مرعب، محقق، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي.

– عويضة، مُحَمَّد نصر الدين، (د.ت.)، فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب، نسخة الشاملة بإعداد الغريب الشهري.

– مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (1374هـ)، صحيح مسلم، مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، محقق، دار إحياء التراث العربي.